# الأصابع العارية

بقلم

محمود البدوى

وقف شاب فى ساعة الأصيل أمام أحد البيوت القديمة فى عزبة النخل يتلمس الجرس ، فلما لم يجد استجابة فى الداخل قرع الباب بتؤدة ثم بعنف .. وسمع نباح كلب فى الداخل ثم أقداما تقترب فى ممشى الحديقة وصوتا خشنا يزجر الكلب .

وانفرج الباب الكبير وهو يصر وظهر رجل طوال ، براق العينين على العتبة كان يرتدى صدارا من الصوف الداكن وبنطلونا رماديا.. ويمسك بيده سلسلة صغيرة تدلى منها مفتاح .

ونظر الرجل بعينين نفاذتين الى الشاب ..

وسأل الطارق بصوت هادىء :

ـ أهذا بيت السيد مدكور ..؟

ـ نعم ...

ـ وهل هو موجود ..؟

ـ انا مدكور ..

ـ اننى مختار المهندس الذى حادثت حضرتك فى التليفون أمس ..

ـ اهلا وسهلا .. تفضل يا بنى .. تفضل .

واجتاز مختار العتبة وهو ينظر بخوف الى الكلب الضخم الذى وقف فى حالة توثب بجوار سيده ..

ولاحظ السيد مدكور ذلك .. فقال:

ـ لا تنظر اليه بخوف هكذا .. ففى الكلاب حاسة ادراك خارقة ، ولا أحب ان تكون بينك وبينه عداوة ...

وابتسم مختار ومشى فى حديقة موحشة كثيفة الاشجار فيها أنواع مختلفة من اشجار البرتقال والليمون والورد ، . كما زرعت نخلتان طويلتان وبنيت فسقية صغيرة فى وسط الحديقة يمرح فيها البط .

وبدت الحديقة تحت نظره هائجه لم تتناولها يد منذ مدة بالتشذيب . وارضها معشوشبة فى جانب ومتربة فى الجانب الآخر .

ولاح البيت وراء الحديقة من طابق واحد وقد خيم عليه السكون المطبق ولم تظهر بادرة انفاس تتردد فى داخله.

ودفع السيد مدكور الباب ووراءه مختار الى ردهة بدت معتمة حتى عن النهار الباهر .

وفى حجرة واسعة جلس مختار ينظر حواليه الى اشياء كثيرة وضعت فى غير نظام ولا ترتيب .. فقد رأى تماثيل دقيقة ولوحات فنية رائعة وعددا مختلفة وآلات حدادة ونجارة وساعات حوائط ومنبهات وكتبا ..

وتركه السيد مدكور جالسا وحده فى الغرفة ودخل فى جوف البيت .. وتأتى له من هناك صوت ناعم .. وكاد من شدة خفوته لا يبين .

ورجع مدكور الى غرفة الجلوس .. وأغلق وراءه بابها .. وأخذ يرحب بمختار ويحادثه بمودة .. وسمع نقرة خفيفة على الباب المغلق فنهض وحرك مصراع الباب حركة خفيفة وبصر مختار بكف بيضاء واصابع عارية تمتد بصينية القهوة .

وشربا القهوة وافاضا فى مختلف الاحاديث ولاحظ مختار ان صاحب البيت وان جاوز الستين من عمره ولكنه ما زال موفور الصحة ، ولا يزال يجرى فى عرقه الدم ، وقد خلا وجهه من التجاعيد ..

كما لاحظ انه لا يدخن وانه يشرب القهوة بتؤدة وهو يستلذ مذاقها ... وانه على ثقافة واسعة .. وعلم بالميكانيكا والكهرباء ..

وقال السيد مدكور وهو يشير لأول مرة الى المهمة التى جاء مختار من أجلها .. والآن تفضل لأريك الماكينة ..

ونهض مختار ومشى به مدكور فى ردهة طويلة معتمة الى الناصية الخلفية من المنزل وفى قاعة صغيرة رأى آلة صغيرة على قاعدة من الاسفلت .

وقال مختار فى سرور :

ـ انها تبدو رائعة ..

ـ وقد تعجب اذا علمت اننى ركبتها كلها بيدى ..

ـ هذا عظيم ..

ـ ومعظم العدد تسوقتها من السوق .. وبعضها صنعته بنفسى .

ـ وكم كلفتك ؟

ـ حوالى مائة وخمسين جنيها ..

ـ مثلها تساوى الآن اكثر من خمسمائة ..

ـ لم يكن هذا قصدى .. وانى كنت أود أن أصنع شيئا فى حياتى .. شيئا ذا قيمة وقد صنعته ..

وبدا على مدكور الزهو والافتخار . ومد قامته .. لما سمع صوت الكلب فى الحديقة .

وكان مختار قد انحنى على الآلة يتفحصها بدقة ثم رفع رأسه وقال :

ـ نديرها ..

وادارها مدكور « وتكت » وخرج « العادم » والكلب ينبح والرجل قد اغرورقت عيناه من الفرحة .

وقال لمختار بصوت الحالم :

ـ ما أجمل ان تصنع شيئا ينبض تحت سمعك وبصرك .. شيئا يتحرك فى حركة رتيبة كخفقة القلب ..

وقال مختار ليزيد من حماسة الرجل :

ـ انه عمل رائع .. انه خلق ..

وقال مدكور وعيناه تلمعان :

ـ لقد احببت الوابورات منذ الصغر .. وكنت أصنع الوابور الصغير من الطين ..

وعيدان البوص .. واجعله يدور حتى احتبس البخار .. واخرج بتلك الفرحة التى تراها على وجهى الساعة.

وسأل والماكينة لا تزال دائرة :

ـ والآن ما العيب يا باشمهندس ؟

ـ فى تصورى انه فى الكرنك ..

ـ وليس فى الحدافة .. ولا البستم .

ـ لا .. انه فى الكرنك .. انه خفيف الضغط .. ولذلك قلت السرعة ..

ـ وما الراى ؟

ـ نستبدله .. أو نصب غيره ..

ـ ومتى ارسله لك ..؟

ـ سأفكه الآن وآخذه معى فى سيارتى .. وجلس الرجلان يفكان الصواميل .. وقال مختار :

ـ سألقى بنظرة اخرى على العدد كلها ما دمنا شرعنا نفك الوابور ... فأرجو أن تأتى لى بمصباح ..

وغاب مدكور قليلا ثم رجع .. وبعد دقيقة واحدة .. سمع نقرا خفيفا على الباب كمثل الذى سمعه أول مرة .. وامتدت الاصابع العارية بالمصباح .. وهمس مدكور بشىء لم يسمعه مختار .. وكان قد رفع راسه بدافع الفضول واخذ ينظر الى هذه اليد السحرية التى تمتد فى الظلام .

ولاحظ مدكور ... بعد أن شعر مختار عن ساعده .. جرحا قديما ترك آثاره فى الذراع اليمنى ..

فسأل :

ـ اهذا من الآلة .. ؟

ـ لا .. انه من الانسان ..

ـ من الانسان ..؟ كيف ..؟

ـ كنت مع الشبان الذين ذهبوا الى الاسماعيلية واطلق الانجليز عليهم الكلاب المسعورة ..

ـ نسيت هذا .. وسيظل الانسان هو وحش الوحوش .. جميعا .. !! منذ فجر التاريخ .. منذ نيرون ... الى القرن العشرين عهد الفرنسيين فى الجزائر ..

وهو وحش الوحش ..

ـ هذا صحيح ..

ـ ما من شىء يتفنن فى تعذيب أخيه .. كما يتفنن الانسان ..

ما من حيوان أو جارح من جوارح الطير .. ما من مخلوق على الاطلاق .. سوى الانسان ..

وكان العشى قد زحف وازداد السكون .. وقطع السكون صوت الكلب وهو ينبح بشدة .. فنهض مدكور الى الباب ففتحه واطل منه ... ثم رجع وهو يقول وعلى وجهه الابتسام ..

ـ الناس تتصور اننى أدفن كنزا فى الحديقة .. وبغير هذا الكلب يا ربى كيف كنت أعيش وأنام ..

ورفع مختار راسه وابتسم فى ود وهو ينظر فى عينى الرجل فقال هذا وكأنه قرأ ما يدور فى رأس مختار :

ـ ولهذا السبب أصبحت لا أشغل

احدا فى بيتى لا جنابنى ولا خادم .. واعمل كل شىء بيدى .

ـ فى العمل تسلية ولذة ..

ـ تصور انهم كانوا يسرقون التحف والتماثيل التى لا تقدر بمال ويبيعونها بأبخس الاثمان .. وكنت أتعذب واظل أبحث عنها حتى استردها .. واخيرا اغلقت النوافذ والأبواب .. وعشت وحدى واسترحت ..

وسمع النقر على الباب ... واطلت الاصابع العارية تحمل صينية الشاى .. وامتدت بها أكثر واكثر حتى بدا المعصم كله فى ضوء المصباح .. وبدت يد انثى لينة ودقيقة الاصابع فى جمال ساحر ..

ورفع مختار راسه .. وطالعه الغموض من جو البيت .. وغص بريقه .. وهو يود ان يسأل :

لمن تكون هذه الأصابع .. اذن ما دمت تعيش وحدك ..؟

ولم يقو مختار على السؤال فصمت وتناول كوب الشاى وأخذ يترشفه فى بطء شديد وهو يتأمل . ثم سأل ليقطع خيط السكون :

ـ هل الوابور .. لرى الحديقة بدل البئر .. أم لانارة البيت .. ؟

ـ للاثنين معا .. وساعطى النور والماء للجيران مجانا .. أجل دون أجر على الاطلاق ..

ـ هذا عمل خير ..

ـ بعض الجيران .. فقراء .. وفى اشد الحاجة الى النور والماء .. وما أثلج على القلب .. ان ترى النور يدخل الى هذه البيوت المظلمة .

واستطرد مدكور وقد برقت السعادة على وجهه :

ـ لقد كانت أمنيتى منذ أحلت الى المعاش وجئت الى هذه المدينة الصغيرة .. ان أرى منازل الفقراء التى حولى تضاء بالكهرباء .. وان أرى الاشجار تزرع والارض مخضرة والورود متفتحة هنا .. وان أحول كل شىء الى حياة ..

وصمت قليلا ثم أضاف فى حماسة:

ورغم اننى أعيش وحدى ولكننى أقول لك عن تجربة : ما أجمل الحياة لمن يعمل ويكد لغاية نبيلة ..

ـ هذا حق ..

وشغل بما فى يده برهة ثم نظر الى الشاب بعطف وسأله :

ـ أمتزوج ياسيد مختار ؟ ..

ـ أبدا ..

ـ لماذا .. يا بنى .. اسرع بالزواج .. والا ستشعر بالضياع فى شيخوختك .. وتكون كمن تقطعت به الاسباب فى الصحراء .. لا ماء ولا شجر .. عجل والا ستقع فى نفس غلطتى ..

ـ وحضرتك لم تتزوج ...؟

ـ أبدا .. كما ترانى ، وحيد ... ضائع ..

ونظر مختار الى وجه الرجل ... ثم عاد الى ما فى يديه وهو يفكر . هل هذا الرجل يمكر به ... ام انه يستخدم فى بيته الشياطين .. من هى

صاحبة اليد التى رآها اذن اكثر من مرة ؟

. من تكون .. من ..؟

وغصت براسه الاسئلة ..

ثم استغرق فى عمله حتى انقضى جزء من الليل ..

ولما فرغا من العمل .. نهض مختار مودعا والغموض والسكون يخيمان على البيت .. وحمل الكرنك فى سيارته وانطلق ..

***

وعاد مدكور فاغلق بابه بالمفتاح .. وكان الظلام يخيم والريح تصفر بين الشجر الملتف والكلب يتبعه وهو يبصبص بذنبه ..

ودخل مدكور البيت واغلق الباب وراءه وطالعه ضوء المصباح الخافت والسكون العميق ..

ونظر الى التماثيل الصغيرة والكبيرة فبدت له كالاشباح الخرساء .. كما بدت الصور كخيال الظل ... وشعر بمرارة قاتلة لانه ذكر وحدته المرة للشاب الذى تركه منذ لحظات .... ونبش حياته .. واحس بفراغه القاتل.

وبدلا من ان يدخل الغرفة الاولى.. وكان النور فيها قد انطفأ .. دخل غرفته .. الغرفة التى لا يشعر فيها بنهار ولا ليل ..

واستلقى على السرير فى الظلام دون ان يشعل المصباح الصغير .

وكلما اشتدت الريح فى الليالى الظلماء كان يحس بتحرك الشجر ثم بتحرك الاشباح .. ويتصور أن أحدا تسور السور .. وجاء لسرقته أو قتله فيحزن أشد الحزن لأنه ليس عنده من صلبه ولد يحميه ويرد عنه غائلة الليل.

كان يشعر بقشعريرة من مجرد التفكير فى انه سيمسك المسدس ويطلق النار على اللص الذى يتسور السور فى الظلام .

وراح فى دوامة من القلق والعذاب .. ثم اغلق عينيه فى الظلام واسترخى واخذه النوم واحس بأصابع عارية تضم عليه الغطاء ...

***

وبعد ايام قليلة رجع مختار فى ساعة الغروب يحمل له الكرنك الجديد .. وسر به مدكور جدا ... واتفقا على ان يركباه فى الصباح التالى . بعد ان يقصر السير بمقدار عقده ... لتكون سرعة الوابور طبيعية .

وطار مدكور من الفرحة وهو يتصور امنيته قد تحققت بعد طول جهاد وانه صنع شيئا نافعا له ولجيرانه الفقراء..

***

وفى اليوم التالى ركب مختار سيارته فى الصباح المبكر واسرع بها الى بيت الرجل وضغط على الجرس ثم قرع الباب فلم يتلق استجابة وتمهل برهة ثم عاود الطرق بعنف خيم بعدها السكون ... وانتابه هاجس جعل القشعريرة تسرى فى بدنه فتلفت حواليه فلم يجد احدا يسأله ، ثم ضغط على الباب بكل قوته فلان تحت جسمه وانفرج وهرول مختار الى الداخل .

ووجد باب البيت مفتوحا .. فولج منه ووقف فى الصالة وقد شله الرعب

.. فقد وجد الرجل صريعا وغارقا فى دمه اذ ضرب بآله حـادة .. والكلب بجواره ضرب نفس الضربة ... ولكن ليس فى نفس المكان وظل يزحف حتى رقد بجوار سيده

ثم تلفت مختـار فى حـزن والدنيا تدور به .. فوجد بابا مفتوحا واشياء مبعثرة على الارض .. فأسرع الى هناك ووجد سيدة رائعة الحسن مكممه فى فمها وموثوقة اليدين والرجلين ومربوطه فى السرير .. وقد طعنت بسكين فى كتفها ولكنها لا زالت تتنفس وتتوجع.

وفك عنها الوثاق سريعا .. ورفع يدها .. وتذكر الاصابع العارية التى رآها أكثر من مرة وفتن بها .. ووضع رأس السيدة على صدره ومسح عنها الدم وتأمل وجهها الجميل ... وهـو يفكر فى صلتها بالرجل الذى مات .. وكانت الاشياء المبعثرة حوله تؤكد له أن الجريمة كانت للسرقة .. ولا علاقة لهذه السيدة المسكينة بها ..

وكان مدكور قد آوى هذه السيدة الجميلة فى بيته بعد ان استشهد والدها ليصـونها من الدنس ويحفظها من ذل الفقر .

ولا تدرى بعد هـذه الفاجعة كيف تواجه الحياة .

ولكن مختار تناول اصابعها العـارية ومسح عليها برفق وحنان ..